

OPEN ACCESS**ABHATH**

(Research Journal of Islamic Studies)

Published by: *Department of Islamic Studies, Lahore Garrison University, Lahore.*

ISSN (Print) : 2519-7932

ISSN (Online) : 2521-067X

*Jan-March-2022**Vol: 7, Issue: 25*Email: abhaath@lgu.edu.pkOJS: <https://ojs.lgu.edu.pk/index.php/abhath/index>

صورة المرأة المسلمة في روايات محمد عبد الحليم عبدالله

**Fictional Representation of Muslim Woman in
The Novels of Abdul Hâleem Abdûllah****Zain Ul Abideen**Lecturer, Arabic Department, NUML, Islamabad
zabideen@numl.edu.pk**Muhammad Iqbal**Assistant Professor, Arabic Department, NUML, Islamabad
mhiqbal@numl.edu.pk**Abstract**

Muhammad AbdûlHâleemAbdûllah is one the bright and brilliant novelists of Egypt in the twentieth century. He had many meetings with the legends of Arabic prose like Dr. Taha Hussein and Najeeb Mehfooz who had positive contribution in the nurturing of the great writer, in the form of artistic writing. Thus, Muhammad Abdûl Haleem Abdûllah wrote on variety of subjects, and contributed a great number of more than a hundred short stories and thirteen novels to the stream of Arabic literature. His focus was to address the social issues facing the Egyptian society especially on the rural front. In this very article, light has been shed on one of the main members of the Egyptian society, i.e., woman, who makes up almost half of any society. This article is basically restricted to three of his novels, in which the representation of the Muslim woman is discussed. It is broadly divided into two chapters; one is composed of brief stories of the three novels and the other discusses representation of the Mûslim women in the Egyptian society.

Keywords: AbdûlHâleem, Representation, Muslim Woman, Novels.

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى أَشْرَفِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى
آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وبعد!

فإن الفن الروائي كان وما زال صورة نابضة للمجتمعات، بكل ما فيها من إصلاحات
وتناقضات، وذلك لأن الكاتب الروائي ابن المجتمع الذي يكتب عنه، وقد يكون عاش الزمان
والمكان والأحداث، فينقل ما حياه عبر سرده نقل الأمين المدقق، بأسلوب مشوق يجعل النفس
تتلذذ بمعرفة المعلوم، والبحث عن المجهول، وقد يحمل السرد الروائي من صور المجتمع ما لا
تعطيه المصنفات الأخرى التاريخية والاجتماعية وغيرهما.

ومحمد عبد الحليم عبدالله من الكتاب البارزين الذي تركوا بصمة في مجال الفن
الروائي، فهو من طليعة الجيل الرائد لهذا الفن في مصر والعالم العربي بأكمله. ولما كان نتاج عبد
الحليم عبدالله الروائي يتسم بالغرارة، حملني ذلك على قصر بحثي على ظاهرة صغيرة من بعض
رواياته، ألا وهي: (صورة المرأة المسلمة في روايات محمد عبد الحليم عبدالله)

والذي دعاني إلى اختيار هذا الموضوع، لأن المرأة هي أساس المجتمع فإذا صلحت صلح
المجتمع كله وإذا فسدت فسدت المجتمع كله. ولذلك قال حافظ إبراهيم: الأم مدرسة إذا أعدتها -
أعدت شعبا طيب الأعراق⁽¹⁾ إضافة إلى أن محمد عبد الحليم عبدالله يعد كاتباً إسلامياً أزهرياً
فهو يعالج قضايا المرأة المسلمة ولا يترك كتبنا الظاهرة مفتوحة بل دائما يعجى بثمرات الصلاح
والتدين، وعواقب الانحراف. هذا وقد اتبعت منهجا استقصائيا استقرائيا على النحو الآتي:

أولاً: الاستقصاء على نتاج الكاتب وقد قصرت البحث على ثلاثة روايات (لقيطة -
شجرة اللبلاب، غصن الزيتون)

ثانياً: الاستقصاء على سبيل الروايات المختارة باختيار النماذج الملمة والمعبرة، مع ذكر
الخطاب الإسلامي الذي يشرحه الكاتب عن طريق هذه الشخصيات.

وبعد هذه المقدمة التي تتضمن الموضوع وسبب اختياره ومنهجه، يأتي البحث منقسماً
إلى التمهيد الذي يحتوي على حياة الكاتب ثم إلى مبحثين كالتالي:

المبحث الأول: الدراسة الموضوعية (مخلص للروايات الثلاث موضع البحث)

المبحث الثاني: المرأة المسلمة بين التدين والعصيان

(١) ديوان حافظ إبراهيم: مطبعة الأميرية. ط: 6، 1956م، مجلد: 1، ص: 223.

(أضاء على حياة الكاتب) التمهيد

محمد عبد الحليم عبد الله من كتاب جمهورية مصر العربية، حيث ولد في كفر بولين مركز كوم حمادة محافظ البحيرة سنة 1913م وحفظ القرآن الكريم في كتاب القرية ثم التحق بالأزهر الشريف خاصة المعهد الديني فيالاسكندرية ثم تخرج من كلية دار العلوم عام 1937م وعمل بمجمع اللغة العربية حتى وافته المنية عام 1970م.⁽²⁾

عكف كاتبنا على قراءة مصادر الأدب شغفا ونهما، فقرأ الشعر الجاهلي والإسلامي والأموي وغيرهم، وحفظ الكثير من هذه الأشعار كما قرأ في كتب النقد حتى اكتملت عنده الملكة الذوقية وأصبح مؤهلا للكتابة والتدوين، فأسهم إلى المكتبة العربية مؤلفات عديدة في مجالات مختلفة، كما حصل على الجوائز المتعددة، حتى حاز على وسام الجمهورية من الطبقة الأولى من الرئيس الراحل محمد أنور السادات.⁽³⁾

ولما نال الكاتب الكثير من الجوائز وتكسب من وظيفته وقلمه، لم يترك أهل قريته فقراء، وإنما سعى جاهدا إلى عمل مزرعة سمك يستفيد منها الجميع، وبني مدرسة وأدخل التيار الكهربائي في القرية.⁽⁴⁾ ومعنى ذلك إنه كان رجلا خيرا يصلح بقدر ما يستطيع. المبحث الأول: الدراسة الموضوعية (ملخص الروايات الثلاث موضع البحث) أولا: لقيطة.⁽⁵⁾

هذه هي باكورة اعمال الكاتب محمد عبد الحليم عبدالله، وتتلخص هذه الرواية في ذم الفوارق الطبقية وتمسك الطبقة الارستقراطية بالأحساب والأنساب والأموال، وكشف نظرة هذه الطبقة إلى الفقراء على أنهم وباء حاضر في المجتمع. تنطلق أحداث هذه الرواية عندما يقع رجل على امرأة وقوعا غير شرعي، وتشاء الظروف وتحمل هذه الأخيرة وتنجب بنتا لا تسطيع أن تواجه المجتمع بها، فتلقي بها تحت شجرة، وبينما

⁽²⁾ محمد عبد الحليم عبد الله حياته وأدبه: د. يوسف حسن نوفل، ص: 3
Muhammad AbdülHalîm Abdûllah Hayatûhuwa Adabuhu, Yusuf Hasan Naufal, pg: 3.

⁽³⁾ قاموس الأدب العربي الحديث: د. حمدي سكوت: ص: 449.
Qamûs Al Adab Al 'Arabi Al Hadîth, Hamdi Sukut, pg: 449.

⁽⁴⁾ محمد عبد الحليم عبد الله حياته وأدبه: ص: 7
Muhammad AbdülHalîm Abdûllah Hayatûhuwa Adabuhu, pg: 7.

⁽⁵⁾ نشرت الرواية سنة 1947م، وقد نالت الجائزة الأولى من مجمع اللغة العربية كما فازت بجائزة وزارة الشؤون الاجتماعية عام 1952م. ينظر: غصن الزيتون: محمد عبد الحليم عبد الله، مكتبة مصر، ص: 222.
Muhammad AbdülHalîm Abdûllah Hayatuhuwa Adabuhu, pg: 222.

الخارجين من صلاة الفجر في طريقهم، إذ يتراعى الى آذانهم صوت بكاء طفلة رضية، فيأخذونها ويسلمونها الى ملجأ (ج) وهناك القائمين على إدارة الملجأ يختارون اسم لها ويكون (ليلي) لهذه الطفلة، تعوض هذه الطفلة بمربية رحيمة وعطوفة، تسمى زينب، تراعيها، وتدافع عنها، وتسهر لراحتها، حتى تصل ليلي إلى سن أربع سنوات فيفاجع الموت زينب، وتترك ليلي في الملجأ لوحدها .

تكبر ليلي وتلتحق بمراحل التعليم المختلفة، ثم تعمل ممرضة في مستشفى خاص، تسمى بمستشفى الدكتور (ك) الذي يحبها حبا جما، ويعتبرها ابنته التي لم ينجحها، غير أن المرجفين في المستشفى بدسائسهم يقطعوا حبل الوصل بين الطبيب (ك) والممرضة ليلي بإشاعتهم الضالة التي تقول بأن ليلي تقول لأهل المستشفى، أنها ابنة الدكتور(ك)، فما يلبث هذا الأخير من طردها من المستشفى.

يتوسط لها الشيخ أمين لرجل مسئول، وتنجع واسطته وتتعين ليلي في مستشفى حكومي، في الاسكندرية بعيدة عن أعين الذين يعرفونها، وهناك تتعرف على الطبيب جمال الذي يحبها وتحبه، وتكبر علاقة الحب بينهما، ويريد أن يتزوجها، لكن محافظة أسرته على تقاليد الطبقة الأرستقراطية التي لا تناسب إلا صاحب المال والحسب والنسب، كان عائقا وقف مسيرة زواج ليلي، وفي النهاية نجد ليلي يصيبها جرح خفيف تسببت فيه الأدوات الجراحية، لكن يكبر هذا الجرح حتى يردي بها إلى الموت.

ثانيا: شجرة اللبلاب⁽⁶⁾

هي قصة ولد اسمه حسني توفي الله أمها في صغره، فتزوج أبوه بشابة لم يتجاوز عمرها عشرين وهو كان في خمسين من عمره، مما جعل حياته في مأزق كبير، لقد نال من أبيه جفوة وقسوة مما جعله ينفر منه، ورأى زوجة أبيه تخون أباه، فلم يستطع البوح بما رأى لكن زوجته أبيه بفعلته تلك زرعت في قلبه بذرة الشك حول ذات المرأة، وصار لديه اعتقادا جازما بأن السبب في الفساد السائد في العالم هو المرأة.

ذهب إلى القاهرة لتكميل مراحل تعليمه المختلفة، فمرّ بمشاهد وخبرات تؤكد له عقيدته النفسية تجاه المرأة، حتى إذا أحبته "زينب" شكّ في حبها الخالص له، ولم يرد على حبها بالجميل، فانتحرت. ومضى زمن طويل في تغيير فكره تجاه المرأة، حتى إذا أصبح مهندسا استطاع أن يخطب شابة جميلة عن طيب قلبه، وشعر أن الحياة بدون حب المرأة قاسية، ما بعدها قسوة.

(6) الرواية من مطبوعات مكتبة مصر، سنة نشره: 1949م.

ثالثاً: غصن الزيتون.⁽⁷⁾

وهي ثاني أعمال الكاتب محمد عبد الحليم عبدالله، وتتناول فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ذلك الردح الزمنى الذي شهد تغييرات في الواقع المصري المعاش وقد انعكس ذلك على أمور متعددة، منها الجانب السلبي الذي عاشه شباب هذه الجيل.

والطالبة عطيات المجتهدة هي النواة التي تفرعت منها كل الأحداث، فهي فتاة رشيقة وصاحبة جمال آخذ، وهناك في المدرسة معلم يسمى جمال أفندي أحب هذه الفتاة، وتوسعت علاقة الحب بينهما، حتى شاعت في أرجاء المدرسة بل والمدارس المجاورة أيضاً. وعلى أثر اتساع هذه العلاقة واشتهارها في المحيط التعليمي، يتم نقل جمال الى الاسكندرية، ويأخذ مادته الدراسية ومكانه في الفصل الأستاذ "عبده"، ذو الشخصية السلبية، الذي وقع في حب هذه الفتاة حبا جما، وهي أحبته حتى سلمت له نفسها، فحملت منه، ثم أصلح خطئه وتزوج منها، غير أنه لم يسعد بهذا الزواج، فكان دائماً يشك في هذه الزوجة، ويسئ الظن بها، وحجته علاقتها القديمة مع جمال، وإنما سلمت له نفسها قبل الزواج، ومن يفعل ذلك مرة يستطيع أن يفعل عشرات المرات، وهكذا تطورت أحداث الرواية نحو الشك والغيرة وسوء الظن بالزوجة، حتى يعود جمال أفندي من الاسكندرية، ويعلم عبده بعودته فتزداد شكوك هذا الأخير، خاصة عندما يحكى له أحد الاصحاب الجالسين بالمقهى "زينب" بأنه رأى امرأة مع جمال، ووصفها بأوصاف جعلت عبده يخمن، إنها عطيات؛ زوجته، فيطلقها، وبعد مرور ايام ليست بالكثيرة، يمسك عبده الجريدة ويقراً حتى يترامى إليه خبر يقول: "عثر على جثة امرأة في حجرة على سطح عمارة مكونة من سبعة أدوار، مقتولة بطعنات سكين في أماكن مختلفة من صدرها وبطنها، ودلت التحريات على أن الذي قتل "عطيات" هو عشيقها الذي اكتوبر لها هذا المسكن، وكان يتردد عليه فيه."⁽⁸⁾

المبحث الثاني: المرأة المسلمة بين التدين والعصيان

أولاً: مفهوم المرأة المسلمة.

بداية إن لكل شيء ثمرة، وثمره الإسلام الأخلاق، فأخلاق المرأة المسلمة هو علامة دينها، ولذلك عرف النبي صلى الله عليه وسلم المسلم بأنه من سلم المسلمون من لسانه ويده وسلامة المسلمين من اللسان واليد هي أخلاق، ثم يترقى هذا المسلم في العبادة فيكون مؤمناً، والمؤمن

⁽⁷⁾ نشرت الرواية من مكتبة مصر، سنة 1955م.

⁽⁸⁾ غصن الزيتون: ص: 120-121.

عرفه النبي صلى الله عليه وسلم بأنه "من آمنه الناس على دماءهم وأموالهم"⁽⁹⁾ وكل هذه الصفات أخلاق، فالدين الإسلامي هو دين الأخلاق، وعند البحث عن المرأة المسلمة في أي خطاب أدبي أو غيره، فإنه لا بد من الوقوف على أخلاق المرأة في هذا الفن، لأن أخلاقها هو المعيار الذي من خلاله يستطيع الباحث أن يضبط إيمانها وإسلامها.

والمرأة حضرت في روايات عبد الحليم عبدالله، بصورها المتنوعة سواء أكانت الملتزمة بالدين والفطرة والطبع، أم المتمردة على الأخلاق والعادات وغيرها، وكل ذلك يهدف الثراء النصي، وقدرة الخطاب الروائي على الإمام بصور المجتمع المتعددة والمختلفة.

وجدير بالذكر: إن المرأة المسلمة أخذت المساحة الكبرى في روايته من حيث التوظيف والمعالجة، والابراز، سواء كانت المرأة المسلمة التي تحلت بالأخلاق الفاضلة الراقية النبيلة. أم المسلمة التي اتبعت نفسها هواها، وهذه الأخيرة كانت الأكثر تداولاً في روايات عبد الحليم عبدالله، وربما يرجع السبب في ذلك إلى أنه كان يعالج بخطابه الروائي سلبيات المجتمع المصري المسلم، وهو في ذلك يضاهي أي مصلح آخر؛ فهذا خطيب يخطب من فوق المنبر يحث الناس على الالتزام بالتدين والأخلاق، فيصلح في المجتمع قدر المستطاع، وهذا شاعر يصرخ ويتألم بما يراه من اعوجاج أخلاقي وانحراف ديني، فيصلح جزء آخر، وهذا روائي يكتب ما بداخل البيوت والغرف والحواري، فيكشف ما لا يكشفه غيره من المصلحين، وهذا يكتب الوصايا، وغيره يبدر الأمثال وهكذا، فالمجتمع لا ينصح إلا بمجموعة من المقومين كالخطباء والشعراء والأدباء وغيرهم. من هذا المنطلق ركز كاتبنا على الشخصية المسلمة غير المتدينة المنفلتة من أخلاق الإسلام بهدف الكشف والإصلاح. وهو في ذلك يساوي الداعي الإسلامي والمصلح الاجتماعي.

ومع ذلك لم تخل رواياته، من الشخصيات التي تخلقت بالأخلاق الإسلامية الفاضلة، فلقد كان هناك نماذج عدة لهذه الظاهرة يمكن تفصيلهما في الآتي:
شخصية زينب في رواية لقيطة.

وشخصية زينب في رواية لقيطة، من النماذج التي تعزز ذلك، فهي تعد نموذجاً للمرأة المسلمة الإنسانية، التي يحتذى بها، خاصة في محبة الآخرين، والسعي الدائم في جلب الخير لهم، وهذا العطاء المستمر من أجل تحقيق سعادتهم، وقد وجدناها في الرواية تتكفل بتربية ليلي،

(9) سنن ابن ماجه. كتاب الفتن، باب: حرمة دم المؤمن وماله. دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض. الطبعة الأولى 1999م. رقم الحديث: 3934. ص: 565.

Sūnan Ibn Majah, Kītab Al Fītan, Darūssalam, Al Rīyad. ed.: 1, 1999. Al Hadith: 3934, pg: 565.

وتقدم كل ما في وسعها بهدف سعادتها، وكانت بالنسبة ليلى ، كأمها وأبيها وأخيمها، فهي المرابي والملجأ والمتكى بالنسبة لها.

"فلزنب كانت المناغاة والبسمات، وبها كان الأُنس والوحشة، وإلها كان الشوق واللهفة، كل أولئك من طفلة على عتبات الوجود ما عرفت رياء الدنيا ولا نفاقها... فأحببتها وبسطت عليها رعايتها، وأخذت ترقب في وجهها كل يوم تفتح الجمال، ووثوبه إلى الاكتمال بلذة وشوق يفوقان حد الوصف، وتتبعها بصرها حين تحبو في ثوبها الأبيض، ثم تعود إليها فتتلقاها بقبلة حتى كأنها تقول: حرمت الجمال الفذ فيمن ولدت، ولم أحرمه فيمن أضعت...إني أحبك يا ليلى!"⁽¹⁰⁾

فزنب تعد نموذجاً للأخلاق الإسلامية النبيلة الراقية، التي تراعي ظروف الآخرين، وتضحي بنفسها وبمالها وبسعادتها من أجل تحقيق سعادتهم، وتقدم لهم ما في وسعها من معونة، وزينب ترى سعادتها في تحقيق سعادة الآخرين، فهي ترتاح لراحة ليلى وتتعب لتعها، وتتألم بألمها، فتمرض ليلى فتقطع معها الوقت في السهر والحزن كأنها ابنتها تماماً بتمام، كما قالت للناظر: "إن لي فيهم طفلة لا أدري لم عطف الله نحوها قلبي حتى أحس أنني أمها-لاقيت منهم في سبيلها كل مرير، وهي اليوم مريضة بالحى غائبة عن نفسها، وقد سهرت بجانبها لأنني أحببتها، فكنت رحمة عليها وعلى من حولها."⁽¹¹⁾

فزنب نموذج لجميل الأخلاق ولحميد الصفات، فمحببة الخير للآخرين، وإعانتهم بقدر الامكان، وذب النقص عنهم، هو ما تحلّت به زينب من صفات إنسانية نبيلة. نجد ذلك بجلاء عندما تقول لها زميلاتها في العمل، بأن أجورنا من الملجأ لا تكفيينا ترد عليها وتقول: " ألا تشعرين بحنان نحو هؤلاء الأطفال؟ تذكرى مرة أنك ترضعين ولجذك...خلي بيبي وبين قلبي، فإني عطوف على كل هؤلاء."⁽¹²⁾

فالخير والطيبة والمحبة والرعاية والعطف والشفقة وغيرها من الفضائل كلها أخلاق تحلت بها شخصية زينب وهي أخلاق إسلامية، جاءت بها شريعة الإسلام لضبط المجتمع الراقى، الذي يحب فيه المرء لغيره ما يحبه لنفسه، والذي يرحم فيه الكبير الصغير، ويذب فيه المرء الغيبة عن غيره، وهذا ما وجدناه من أخلاق تخلقت بها زينب في الرواية، فهي على ذلك تعد امرأة مسلمة إيجابية ملتزمة بتعليم الدين الإسلامي بالقدر المستطاع إذا ما قورنت بغيرها.

Laqitah, pg: 13-14.

⁽¹⁰⁾لقبطة: ص: 13-14.

Ibid, pg: 19.

⁽¹¹⁾المصدر نفسه: ص: 19.

Ibid, pg: 11.

⁽¹²⁾المصدر السابق: ص: 11.

وخلاصة ذلك: فإن عبدالحليم عبدالله من خلال مسيرة زينب في الرواية اطلعنا على النموذج الأمثل للمرأة المسلمة في المجتمع المصري، فهي تؤثر غيرها علميا وهذه أخلاق فاضلة مدح بها الحق جلَّ شأنه الأنصار في قوله تعالى "وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ" (13) وبمسيرتها في الرواية أيضا شرح لنا الكاتب جانبا من أحاديث رسول الله عليه وسلم، وهذه مهمة الروائي أن يترجم النصوص الدينية على سلوك الشخصيات، فمثلا النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه" (14) نجد الكاتب يترجم لنا هذا الحديث على سلوك شخصية زينب فقد تخلقت بهذا الخلق، فكانت زينب تحب لليلي ما تحبها لنفسها وكذلك للآخرين. كذلك تجد الرسول صلى الله عليه وسلم يقول "ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا" (15) وزينب اتصفت بهذه الصفة.

فهي مثلت جانبا من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، وليس ببعيد أن نصفها بالنموذج الأمثل للأخلاق الراقية النبيلة التي يحبها الله عز وجل ويحبها رسوله صلى الله عليه وسلم.

وزينب في رواية "لقبطة" شخصية تتسم بالحلم، وكتم الغيظ، ومسك النفس عند الغضب، فلقد دس لها زملاؤها في الملجأ الدسائس، وكيلا لها الاتهامات حتى وصل بهم الأمر إلى السباب والشتم والضرب، وكل ذلك لأنها كانت تحارب الفساد وتسعى على إقامة الصلاح في هذا الملجأ وأن يصب العاملون فيه جل تركيزهم على اللقطاء ورعايتهم يقول الكاتب:

"وما إن طرقت أسماع القوم هذه الكلمة حتى غمرهم سكون انفتحت بعده الأفواه . فمن قائل: لاشك أنك من أسرة نبيلة خانها الزمن فجئت مرضعة في هذا الملجأ. ومن قائله: لا بد أن لك اليوم سندا من رجل عظيم، فنحن نحس دلالك في هذه الأيام، ومن قائل دعوها فإن بنتها مريضة بالحى، وهذا هو سر ثورتها عليكم. وأخيرا- والموقف خاطف لم يعط الرئيسة فرصة

(13) سورة الحشر: الآية: 9. Al Qûran, 59: 9.

(14) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب: من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه. دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض. الطبعة الثانية 1999م. رقم الحديث: 13. ص: 5.

Sahih Al Bûkhari, Kitab Al Iman. Darussalam, Al Rîyad. ed.: 2, 1999. Al Hadîth: 13, pg: 5.

(15) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب: في الرحمة. دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض. الطبعة الأولى 1999م، رقم الحديث: 4943. ص: 696.

Sûnan Abi Dawud, Kitab Al Adab. Darûssalam, Al Rîyad. ed.: 1, 1999. Al Hadîth: 4943, pg: 696.

لوضع حد للجدل - تقدمت خادمة بدينة مفتولة العضدين وأقبلت في ثورة وصخب تقذف بكلمات السباب متداخلة متلاحقة وأمسكت بتلابيب زينب، ثم لکمتها لکمة شجعت الحاقد والحاقد ونهت المغيظ والمغيظة، فنالت من الضرب ما طرحها على الأرض.⁽¹⁶⁾

ووصل الأمر إلى الناظر ودعا زينب ليأخذ أقولها، وكان الجميع يتوقع أنها تقول ما جرى لها للناظر وتنصر نفسها ويطرد الناظر هؤلاء المعتدون، لكنها اتسمت بالحلم والعفو والصفح. جرت هذه الحوادث بسرعة ما تطرف العين أو يتراقص الشعاع، ثم انقض الجمع ومرت فترة أخرى واجتمع الخصوم في مكتب الناظر، شرحت كبيرة الخدم ما لاقته هي وزينب من عنت القوم وسوء أخلاقهم، وأشار الناظر إلى زينب بأن تتكلم، فتعلقت أنفاس المعتدين، وتوقعوا أنها ستكيل إليهم كيلا غير أنهم سمعوها تقول:

"سيدي الناظر لست متألمة من شيء ولا باكية على شيء، إلا على هؤلاء الأطفال إنهم يأخذونهم بجريرة غيرهم وهم أصحاب، ويهملونهم وهم مرضى."⁽¹⁷⁾ فزينب كانت سعادتها الاهتمام بهؤلاء الأطفال ورعايتهم والقيام على مصالحهم، وهي ليس لها أي مطلب ترضى بالذل مع سعادة اللقطاء، وإن هذا الموقف يترجم لنا كثيرا من نصوص الشعرية الإسلامية، فلقد حس الإسلام على الحلم، والعفو والصفح، وتحمل أذى الآخرين. وزينب امرأة مصلحة، ومن المعلوم أن المصلحين في الأرض يكون له أعداء من المجرمين، وقد قال الله تعالى عن الرسول الذين لا يريدون إلا الإصلاح في الأرض ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا: "وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًّا وَنَصِيرًا."⁽¹⁸⁾

فالمصلح لا بد أن يكون لها الأعداء والمغرضون الذين يعرقلون مسيرة إصلاحه، وزينب التي تسعى لإقامة العدل والصلاح والرعاية قد لاقته من المجرمين السباب والضرب والإهانة والذل، حتى وصل بها الأمر إلى الموت وكأن سياق الحال يقول إنها ليس لها مكان وسط هؤلاء المجرمين. أو بتعبير أدق: الطيبون يغادرون الأرض سريعاً وكأنهم يقولون للناس: لا مكان لنا بينكم. (ليلي) نموذج الصراحة والصدق.

وليلي هو رمز للمرأة المتدينة الصريحة الصادقة، فهي لقيطة تربت في الملجأ ومن المعهود في المجتمعات أن الملجأ من الندرة بمكان أن يحتضر فيه التدين وتتواجد فيه الشخصية

Laqitah, pg: 18.

⁽¹⁶⁾ لقيطة: ص: 18.

Ibid, pg: 19.

⁽¹⁷⁾ المصدر نفسه: ص: 19.

Al Quran, 6:112.

⁽¹⁸⁾ سورة الأنعام: آية: 112.

الدينية، غير أن عبد الحليم عبدالله قد خالف هذا النهج، فقد خَرَجَ ملجأه المصلحين الملتزمين بالأخلاق الإسلامية النبيلة الراقية، فليلى تصلى لله، وتدعو الله أن يرحم أموات المسلمين ويرحم ربها زينب، وهذا يعد أول مؤشرات الصلاح، لأن الدين الإسلامي قد جعل هناك معايير إذا انطبقت على المسلم اتسم بالصلاح منها الدعاء لأحد الأبوين بعد الوفاة فقد جاء في صريح السنة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ وَعِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ وَوَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ"⁽¹⁹⁾، وليلى تدعو لأُمها زينب التي ربّتها بعد موتها فهي ولد صالح لبي دعوة المصطفى صلى الله عليه وسلم.

وتزداد معايير الصدق والصراحة والوضوح، عندما تقدم لخطبتها الطبيب جمال ابن الطبقة الأرستقراطية، والتي أحبته من كل قلبها، وكانت آنذاك في مستشفى بعيدة عن أعين الذين يعرفون سر تاريخها، فكان من السهل عليها أن تقنع الطبيب جمال بأنها ابنة تاجر غنى أو هي من طبقة أرستقراطية، وتزوج منه وتنتقل من دار الفقر إلى دار الهناء التي تتمناها أي فتاة، لكنّها لم ترض بذلك، فوضعت سعادتها في كفه وصراحتها في الكفة الأخرى، فرجحت كفت الصراحة مع الشقاء، ولم ترض بالكذب مع الهناء. وذلك عندما صارحت جمالا عند ما قدم إليها طالبا يدها للزواج، وقالت لها بأنها لقيطة، فهل يقبل لقيطة زوجة لها؟⁽²⁰⁾

نعم إنها أخلاق فاضلة تدل على الإيمان، ولما لا فإن من صفات المؤمن أنه لا يكذب ولا يخدع، ويغش مع الناس في التعامل.
الشخصية الصابرة على الإيذاء.

شخصية ليلى مثلا للشخصية المحرومة التي وطأها الزمان بأقدامه، فمنذ أن فتحت عينها للحياة وهي تذوق من العذاب الألوان، فهي لقيطة ولدتها الرذيلة... "ووجدت في قرية من قرى الريف على مقربة من القاهرة، وعلى جانب من طريق سابلة تحت شجرة على رأس مزرعة خصراء."⁽²¹⁾

⁽¹⁹⁾ صحيح مسلم، كتاب الوصية، باب: ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته. دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض. الطبعة الثانية 2001م، رقم الحديث: 4223. ص: 716.
Sahîh Mûslim, Kîtab Al Zûhd, Darûssalam, Al Rîyad. ed.: 2 2001. Al Hadîth: 4223, pg: 716.

Laqitâh, pg: 176.

⁽²⁰⁾ لقيطة: ص: 176.

Laqitâh, pg: 1.

⁽²¹⁾ لقيطة: ص: 1.

ولما كبرت وعملت ممرضة، أخذ العاملون في المستشفى يكيلون لها عبارات، تحمل من الذل والمهانة ويذكرونها بتاريخها القديم الذي لم يكن لها أي دخل في كتابته، كما سألت زوجة الدكتور ك وكانت ليلى في عيادته: "أهذه فتاة الملجأ؟ لتذكرها بأنواع من البنات مثل فتاة المرقص، وفتاة المقصف ونحو ذلك.⁽²²⁾

ولم ترض بهذا الذل والهوان، فتنقلت إلى مستشفى آخر بعيدا عن أعين الذين يعرفونها، وهناك تتعرف على طبيب يحبها وتحبه، ويعدها بالزواج عشرات المرات، ولما علم أبوه بأنها لقيطة، أجبره بأن يتركها لأنه لا مكان بين أسرتهم للقيطات كما قال له: "لا تنس يا بني ما لك من قيمة في المجتمع وما لأسرتك من مكانة يشار إليها، فلا تترك رأسك".⁽²³⁾

وفي النهاية نجدها تمرض ويصيبها داء قاتل في ذراعها، فيؤدي بها إلى الممات والرحيل من هذا المجتمع الذي حرّمها من أن تنال أي شيء حتى ولو كان بسيطا.

فالخطاب الروائي هنا أبرز عن طبقة مظلومة محرومة، داس عليها الزمان بأقدامه، والذي حكم عليها بذلك والداها، إذ ألقيا بها تحت شجرة عقب ولادتها تماما، إضافة إلى المصدر الذي تغشت به أمها من أبيها، هل شرعي أم غير ذلك.

وعلى كل حال فهذه أخلاق لاتلائم مع الفطرة الإنسانية، وما جاءت به الشريعة الإسلامية القاصدة مصالح العباد في العاجل والأجل، إن هذا الفعل البشع الذي ارتكبه والدا ليلى في صغيرها، يشبه إلى حد كبير فعل أهل الجاهلية، الذين كانوا يدفنون البنات أحياء، وقد قص القرآن الكريم خبرهم في قوله: "أَيُّمِسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ"⁽²⁴⁾

ففعل والدي ليلى بها في صغيرها، هو دين سدده من سعادتها، ومن صحتها، ومن عزتها، وبغربتها الدائمة، وهذه العزلة طوال مسيرتها الحياتية، والذي جعلنا نعد نموذج ليلى تحت بند الشخصيات الإيجابية؛ لأن هذا الظلم والحرمان الذي لحق بها وبدارها، لم تكن لها أي دخل فيه، وإنما تسبب في كل ذلك المجتمع بأنانية أشخاصه المحبين الخير لأنفسهم، والكارهونه لغيرهم. وتحمل ليلى هذه الحرمان والظلم بمثابة الصبر بالنسبة لها، والصبر على رأس الخلاق الإسلامية، بل هو نصف الدين مع الشكر كما جاء ذلك في صريح السنة النبوية: عن صهيب

Ibid, pg: 70.

⁽²²⁾المصدر نفسه: ص: 70.

Ibid, pg: 210.

⁽²³⁾ المصدر السابق: ص: 210.

Al Qûran, 16: 59.

⁽²⁴⁾ سورة النحل: الآية: 59.

قال، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ: إِنَّ أَصَابَتْهُ سَرَّاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ.⁽²⁵⁾
شخصيات مسلمة غير متدينة.

زينب في روية شجرة اللبلاب ذلك الطالبة المجتهدة التي تكتب الرسائل إلى حبيبها حسنى، المعقد نفسيا، والذي أورثها هذه العقدة.

فهي فتاة تتسم بالجزع وقصر النفس، وعدم القدرة على تحمل ضغوط الحياة، فلما تفشل في نيل مطلبها (حسنى) المهندس الذي أحبته من أعماق قلبها، وكانت تريد منه زوجا صالحا، تنتحر وتتخلص من نفسها.⁽²⁶⁾

فهذه المرأة أفعالها تتناقض مع الفطرة الإسلامية التي حرمت قتل النفس، حيث قال تعال: "وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا"⁽²⁷⁾

أم (ربيع) هي المرأة الضرة التي لا يضبطها دين ولا أخلاق، فلقد اتسمت بغلظة القلب، والجفاف على أولاد زوجها الأيتام، واستطاعت أن تسيطر على والدهم (أبو حسنى) وتأسره في صفوفها وتجعله يعلن الحرب على أولاده، كما يقول حسنى عنها: "وبالغت فيما أخذت فيه حتى انتهى بها أمرها إلى الإسراف وحتى كان إسرافها على حساب حاجاتي أنا وأختي."⁽²⁸⁾

هذه المرأة رأيناها تخون زوجها الكبير السن، والذي لم يقدر على تلبية رغباتها، فلقد صورها الكاتب وهي واقعة مع ابن عمها محفوظ، غائبة في قبلة معه.⁽²⁹⁾

إن الخطاب الديني الذي تشرحه وضعية هذه المرأة، يدل على أن غلظة القلب في أي إنسان تجعل المحيطين به يفرون من ملازمته، وقد قال الله تعالى مخاطبا رسوله صلى الله عليه وسلم: "وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ"⁽³⁰⁾، وهكذا فقد انفض حسنى من حول هذه المرأة وسافر إلى القاهرة، بسبب غلظتها وجفاف قلبها.

⁽²⁵⁾ صحيح مسلم، كتاب الزهد، باب: المؤمن أمره كله خير. رقم الحديث: 7500. ص: 1295.

SahîhMûslim, Kitâb Al Zûhd, Al Hadîth: 7500, pg: 1295.

Shajarah Al Lablab,pg:159.

⁽²⁶⁾ شجرة اللبلاب: ص: 159.

Al Qûran, 4: 29.

⁽²⁷⁾ سورة النساء: ص: 29.

ShajarahAlLablab,pg: 18

⁽²⁸⁾ شجرة اللبلاب: ص: 18.

Laqitâh, pg: 39.

⁽²⁹⁾ لقيطة: ص: 39.

AlQûran,24:159.

⁽³⁰⁾ سورة النور: الآية: 159.

كما يضيف الخطاب الروائي خطورة عدم الكفاءة الزوجية في السن، التي يترتب عليها الخيانة الزوجية وفي بعض الأحيان الإضرار بالنسب، وهذا مما يجعل الزوجة تنظر إلى إشباع ملذات الدنيا حتى وإن كان عقوبة ذلك الخلود في الجحيم والعياذ بالله.

إن البعد عن الدين وعدم اتخاذه دستور حياة يضمن للفرد السعادة الآجلة والعاجلة، هو الذي جعل المجتمع المصري يعج بمثل هذه النماذج المتناقضة، ولو أن هؤلاء اتخذوا من الدين ضبطاً لأخلاقهم لكانوا مثالا يحتذى به في الأخلاق الحميدة الطيبة بدلا من هذا الانحلال والانحراف. وعطيات في غصن الزيتون طالبة الثانوية المتفوقة دراسيا، ورغم هذا التفوق في مراحل الدراسة، إلا أن هذا التعليم لم يؤثر في أخلاقها، ولم يرفع من شأنها، فلم تكتسب من هذا التفوق العلمي، إلا القدرة على جذب المدرسين لها، وإثارتهم وتأجيح مشاعرهم وعواطفهم نحوها.

ففي البداية الأولى، تعلق قلبها بجمال أفندي، وكان يزورهم في بيتهم بين الفينة والأخرى، وجمعتهم علاقة حب قوية، ولكن صيت جمال الذائع في أرجاء المدارس بعلاقاته النسائية، تسبب في نقله إلى الإسكندرية، وتنتهي قصة الحب بينه وبينها بالفشل: "وكانت خلاصة الموضوع أنه راحل!! تعاقد مع إحدى المدارس الإفرنجية في الإسكندرية مدرسا للغة العربية فيها... ثم رحل بعد أيام وفاضت أعين بعضنا بالدموع ونحن نودعه."⁽³¹⁾

ثم يحى عبده أفندي والذي التقم الطعام، فقد استطاعت عطيات بجمالها الأخذ، أن تثير عواطفه نحوها، فسكنت في خياله وفي أحلامه وفي حله وترحاله. فتزوج منها بعد حب باهت، فلما لم يقدر عبده أفندي بغناها بالأمومة، تختلط بجمال عشيقها السابق، ثم تحمل منه حملا خفيفا فتمر به، حتى تضع بنتا تكون بمثابة الضحية والتي لم يكتب لها من العمر إلا القليل.⁽³²⁾ وعقب ما ترامي إلى عبده أن عطيات كانت مع جمال، وتثير الشكوك إلى نفسه يطلقها، ويتزوج من غيرها، وما يلبث إلا أن فوجئ وهو يقرأ في الجريدة، بمقتلها بطعنات من عشيقها السابق.⁽³³⁾

⁽³¹⁾ غصن الزيتون: ص: 44-43.

Ghûsn Al Zaitûn, pg: 43-44.

⁽³²⁾ المصدر نفسه: ص: 182.

Ibid, pg: 182.

⁽³³⁾ المصدر نفسه: ص: 220-221.

Ibid, pg: 220-221.

فعطيات تعد نموذجا للمرأة التي لم تنضبط بأخلاق الإسلام، وإنما غلبت الشهوة على الإنسانية فأصبحت في درجة أدنى من الحيوان، فالدين الإسلامية حث على الحياء وعلى العفة والطهارة، وبين فضل هذه الأخلاق كما حذر من عدم التخلق بها وعواقب ذلك الوخيمة في العاجل والآجل.

النتائج والتوصيات

وبعد هذه الرحلة الفنية في نتاج الكاتب محمد عبد الحلیم عبد الله نستطيع أن نقول:

- (1) إن الكاتب تناول مظاهر المرأة المختلفة كمعالج طبي اجتماعي، مما يبرز دوره ووظيفة أدبه في المجتمع المصري.
- (2) نزع الكاتب في رواياته الثلاثة إلى فكرة إسلامية؛ لها جذور صحيحة في السنة، وهي أن المرء يبتلى على قدر دينه، فكانت المرأة المتمسكة أكثر ابتلاء من غيرها.
- (3) رغم أن محمد عبد الحلیم عبدالله يعالج مجتمع عاش فيه إلا إنه لم يمنعه ذلك من السير على الدرب الأدبي في المسميات.
- (4) مما امتاز به كاتبنا أنه كان يذكر عواقب الانحراف، ولا يترك للقارئ النهاية مفتوحة.
- (5) وأخيرا: يحمل أدب محمد عبد الحلیم عبدالله نافذة يطل من خلالها الباحثون على المجتمع المصري وقضاياها المتعددة.

التوصيات

العودة الى الأجيال المتقدمة في الفن الروائي، لأن كتاب هذه المرحلة اتسم نتاجهم، بالزخم الموضوعي والقدرة علمعالجة القضايا المتعددة، كما يمكن دراسة فنية للشخصيات المتواجدة في روايات الكاتب.



This work is licensed under a Creative Commons Attribution 4.0 International License